المقامة (الشاذونية) عند ابن رُزَيق: دراسة تحليلية

The Shadhuniya Maqama according to Ibn Ruzayq: Analytical Study

أ. **كاملة بنت سليمان بن محمد الريامية:** باحثة دكتوراه في جامعة السلطان إدريس، ماليزيا.

أ.م. د. **محمد أنس المحسن:** أستاذ الأدب العربي المساعد، جامعة السلطان إدريس، ماليزيا.

Ms. Kamla Suliman Mohammed Al Riami: Doctoral researcher, Sultan Idris University, Malaysia.

Dr. Mohammed Anas Almuhsen: Assistant Professor in Arabic Literature, Sultan Idris University, Malaysia.

Email: kaka97722983@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v4i11.1291

الملخص:

تهدف الدراسة إلى إبراز مكانة المقامة (الشاذونية عند ابن رزيق) في الأدب العماني، فهو أحد الفنون التي تعكس التراث التقليدي والفكري لعمان، وتسلط الضوء على إسهامات ابن رزيق كأحد كتاب المقامات في الأدب العربي، وتركز الدراسة على جوانب الإبداع التي تميزت به المقامة (الشاذونية عند ابن رزيق)، مقارنة بالمقامات التقليدية في الأدب العربي (مقامات الهمذاني، والحريري)، أيضا تستكشف الدراسة فهم القضايا التي تناولتها المقامة (الشاذونية)، مثل القيم الأخلاقية، والقضايا الإجتماعية. واعتمدت الدراسة على أسلوبٍ علميٍ يجمع بين التحليل الفني والوصفي للوصول إلى البنية الفنية والفكرية للمقامة، وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها: 1. إن المقامة الشاذونية تعتبر إضافة نوعية إلى حقل الدراسات الأدبية والنقدية؛ 2. إن فن المقامات "لابن رزيق" يعكس أصالة الأدب العماني وأثره في الأدب العربي بشكل عام، حيث إن "ابن رزيق" أضاف إلى فن المقامات بعض الخصائص التي تميزها عن المقامات الأخرى، فقد دمج بين الفكرة الدينية والأدبية معا. وأوصت الدراسة بضرورة تحفيز الطلاب للبحث في المقامات كفن أدبي قائم بذاته، كما توصي إلى تعميق الفهم الأكاديمي والبحثي في فن المقامات بشكل عام وفن المقامات العمانية بشكل خاص، عن طريق تحقيق ونشر نصوص أخرى لابن رزيق حتى تعزز مكانة الأدب العماني في السياق الأدبي العربي والعالمي، وتوثيق التراث العماني ليكون مرجعا للأجيال القادمة.

الكلمات المفتاحية: المقامات، فن المقامات، المقامة الشاذونية، ابن رزيق، الأدب في عمان

Abstract:

This study aims to highlight the significance of the *Shadhuniyya Maqama* by Ibn Raziq in Omani literature, as it represents one of the artistic forms that reflect Oman's traditional and intellectual heritage. It sheds light on Ibn Raziq's contributions as one of the authors of Arabic maqamat, focusing on the creative aspects that distinguish the *Shadhuniyya Maqama* compared to traditional Arabic maqamat, such as those of Al-Hamadhani and Al-Hariri. Additionally, the study explores the themes addressed in the *Shadhuniyya Maqama*, such as moral values and social issues.

The study methodology adopted a scientific approach that combines artistic and descriptive analysis to uncover the maqama's artistic and intellectual structure. The historical method was employed to trace the origins and evolution of the maqama genre up to Ibn Raziq, while the descriptive approach analyzed the maqama's structure, linguistic style, and artistic formulation. The analytical method, which is central to the study, focused on dissecting the maqama's artistic framework, including its style, language, plot, and characters.

The study reached several key findings, including: 1. The *Shadhuniyya Maqama* is a valuable addition to the field of literary and critical studies. 2. Ibn Raziq's maqamat reflect the originality of Omani literature and its impact on Arabic literature. Ibn Raziq introduced distinct features to the maqama genre by blending religious and literary ideas.

The researcher recommends encouraging students to explore maqamat as a standalone literary genre. It also calls for a deeper academic and research focus on maqamat in general and Omani maqamat in particular by editing and publishing additional texts by Ibn Raziq. This would further enhance the status of Omani literature within the broader context of Arabic and global literature while documenting Omani heritage as a reference for future generations.

Keywords: *Maqama*, Shadhuniyya, Ibn Raziq, Omani literature

المقدمة:

تعد مقامات ابن رزيق إحدى الأعمال الأدبية التراثية المهمة التي تسلط الضوء على فن المقامات في الأدب العربي، ويعد هذا النوع الأدبي من الفنون البديعة التي ظهرت في العصر العباسي وازدهرت لاحقاً في العصور اللاحقة.

والمقامات عبارة عن مجموعة من القصص القصيرة التي تروى بأسلوب فني يمزج بين السرد والنثر الفني والشعر، وتهدف إلى تقديم الحكمة والموعظة بأسلوب مسل وممتع.

كان لابن رزيق أثر كبير في بعث هذا الفن والحفاظ عليه، وقد عاش ابن رزيق في فترة من الفترات المتأخرة من ازدهار فنّ المقامات، وكان متميزاً بأسلوبه البلاغي، وباستخدامه الفصيح للغة العربية، حيث يذكر أنه جمع بين ستين مقامة متداولة في عصره مع الخاصة والعامة، وسمي كتابه "علم الكرامات المنسوب إلى نسق المقامات" فيقول: "لقد بدت لي الفتنة لما أثبت ما في هذه المقامة من الخطاب في هذا الكتاب"، أن أثبت مقامه الستين المقامة الشائعات مع الخاصة والعامة، وقد سميت ذلك الكتاب الذي أودعتهن فيه "علم الكرامات المنسوب إلى المقامات" (ابن رزيق، السلك الفريد، تحقيق محمد الصليبي).

في مقامات ابن رزيق نجد اهتماماً كبيراً بإبراز القيم الاجتماعية والأخلاقية؛ حيث يمزج في قصصه بين الطرافة والجدية، كما أن مقامات ابن رزيق تمتاز بتنوع الشخصيات والأماكن، وتعكس صورة الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، مما يجعلها مصدراً غنياً لدراسة التاريخ والثقافة العربية.

تتضمن المقامات غالباً شخصية راوٍ (عادةً شخصية ثابتة)، ومحتال بارع، أو مغامر يخوض مواقف متعددة؛ حيث يستخدم الحيلة والذكاء للتغلب على الصعاب، وفي النهاية يترك القارئ مع مغزى أو درس.

مشكلة الدراسة:

بالرغم من أن فن المقامات في الأدب العربي له أهمية ودور بارز في التعبير عن القضايا الاجتماعية والثقافية، إلا أن المقامة الشاذونية (لابن رزيق) لم تحظ بالدراسة والتحليل الكاف مقارنة بالمقامات الأخرى مثل: مقامة (بديع الزمان الهمذاني)، و(الحريري)، ومن هنا تأتي مشكلة الدراسة:

1. ما هي الخصائص الفنية للمقامة الشاذونية (لابن رزيق)؟
2. كيف تعكس المقامة الشاذونية البيئة الإجتماعية والثقافية لعمان في عصر المؤلف؟

أهداف الدراسة:

1. تحليل الخصائص الفنية للمقامة الشاذونية (لابن رزيق)، مثل الشخصيات، المكان والزمان، الحبكة.
2. دراسة تأثير البيئة الثقافية والاجتماعية العمانية في تشكيل ملامح النص الأدبي.

أهمية الدراسة:

- تعد المقامة الشاذونية نموذجا فريدا، لأنه يجمع بين التقليد والابتكار في فن المقامات، وهذا الأمر يجعل من هذا الفن مادة قيمة لدراسة تطور فن المقامات في السياق الأدبي.
- تعكس المقامة الشاذونية القضايا الاجتماعية والسياسية للعصر الذي عاشه ابن رزيق، مما يجعلها عبارة عن وثيقة تاريخية تبرز جوانب من الحياة العمانية في تلك الفترة.
- دراسة فن المقامات يسهم في إحياء التراث الأدبي العماني، ويبرز مكانته ضمن الإطار العربي.

الدراسات السابقة:

عثرت الباحثة على دراسات سابقة أشارت ودرست بعضا من جوانب الدراسة، لكن بصورة غير شاملة سواء من خلال تغطية أحداث دون غيرها، أو من خلال غض الطرف في أحيان متعددة على جوانب رئيسية مؤثرة في التاريخ العماني بعمق.

ويمكن أن نشير هنا على سبيل الذكر لا الحصر بعض الدراسات التي اعتمدت عليها الباحثة في دراستها، وهي:

1. د. آسية بنت ناصر بن سيف البوعلي: البنية الفنية لمقامات ابن رزيق، هدفت الدراسة إلى التركيز على العناصر الفنية والأسلوبية في مقامات ابن رزيق، مثل: الشخصيات، الأسلوب، اللغة، الأحداث، الزمان والمكان؛ لفهم صياغة النصوص الأدبية، وأيضا أثبتت الكاتبة مكانة مقامات ابن رزيق في الأدب العربي من خلال تطوير هذا النوع الأدبي.

استفادت الباحثة من هذه الدراسة في تعزيز الفهم الصحيح للأدب العماني، وكيفية تحليل العناصر الفنية فيه، ليعمق تقديرنا للإبداع العماني في سياق الأدب العربي.

الفرق بين هاتين الدراستين أن دراسة الدكتورة (آسية البوعلي) ركزت على المقامات باعتبار أنها نوع أدبي فني يبرز البنية الفنية للمقامات، أما فن الشاذونية فقد اهتمت الباحثة بجانب واحد من التراث العماني وهو (الشاذونية)، وهو نوع أدبي له صبغة دينية، متصلة بالفكر والتراث العماني.

هاتان الدراستان تكملان بعضهما البعض في إبراز الأبعاد المختلفة لشخصية ابن رزيق وتراثه الأدبي والفكري.

هناك دراسات عديدة تناولت التراث الأدبي في سلطنة عمان، وأشارت إلى أن ابن رزيق كمؤرخ وأديب، وسلطت الضوء على مقاماته، باعتبار أنها جزء من التراث الأدبي العماني، مثل:

2. كتاب د. محمد أبو الوفا أحمد، "الأدب العماني ماضيه وحاضره"، 1986:

الهدف الأساسي من تأليف الكتاب هو توثيق التراث الأدبي العماني، وإسهاماته في الأدب العربي، أشار الكاتب إلى مقامات ابن رزيق كنوع من الإبداع الأدبي في سلطنة عمان، وتحدث عن دور المقامات في التعبير عن أهم القضايا الاجتماعية والفكرية.

استفادت الباحثة من هذه الدراسة باعتبار أن المقامات مرجع مهم، تقدم معالجة شاملة للأدب العماني في الماضي والحاضر.

3 . كتاب د. أحمد محمد الحوفي، "تطور فن المقامات في الأدب العربي"، 1956:

هدف الكاتب هو دراسة نشأة فن المقامات في الأدب العربي، بداية من الهمذاني، ووصولا إلى تطوره مع الحريري وغيرهم، وأبرز أهمية المقامات بوصفها لونا أدبيا يمزج بين التعليم والترفيه.

استفادت الباحثة من هذه الدراسة بأنه كيف استخدم الأدباء فن المقامات للتعبير عن قضايا عصرهم، وعن واقع المجتمع العربي، وتصوير العادات والتقاليد، ومعالجة القضايا الاجتماعية.

سوف يتخذ الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، ويمكن أن نعالج ذلك في المباحث الآتية:

- المبحث الأول: نبذة مختصرة عن ابن رزيق.
- المبحث الثاني: فن المقامات (التعريف والنشأة).
- المبحث الثالث: تحليل المقامة الشاذونية.
- الخاتمة والنتائج والتوصيات

المبحث الأول: ابن رزيق: اسمه ونسبه ومولده ووفاته

هو حميد بن محمد بن رزيق بن بخيت الذي هو من أولاد سعيد بن غسان (ابن رزيق، 2001: 11-12). وينسبه الخروصي إلى قبيلة العبيداني (الخروصي، 2002: 348). النخلي، نسبة إلى موطنه نخل، "وهي من الولايات الواقعة في منطقة الباطنة" (الخصيبي،

137، 138). وولد حوالي سنة 1198هـ، الموافق 1783م، وتوفي سنة (1291هـ/ 1874م)، (مرسي، 1983: 6).

نشأته ومكانته:

نشأ ابن رزيق في مسقط في رغد من العيش؛ إذ كان جده يعمل في قلم الحساب في الفرضة "ويعرف الآن باسم الجمارك (السلك الفريد الصليبي، السيرة الجلية، 2007م، الشعاع الشائع، 1996م)، أيام الإمام سيف بن سلطان اليعربي، ثم انتقل إلى والدته، وحيث تم انتخاب السيد أحمد بن سعيد إمامًا لعمان 1741م (نور الدين السالمي، 2000م)، قام الإمام بتقريب جده وجعله مسؤولًا على فرضه، ومن بعد والده وصولًا إليه، وذلك موجب وصية الإمام أحمد بن سعيد لأولاده؛ بسبب خدمة قدمها جده رزيق للإمام، وكانت هذه الوصية "مرقومة في دفتر السركار" وهو السجل السري للأعمال (ابن رزيق، 2001: 351).

علت مكانة ابن رزيق، وأصبح في قلب القرار مطلعًا على كل ما يجري من أحداث، ومن هنا كان منطلقه في صنع تاريخه السياسي البوسعيدي مع الأئمة، الذين جاؤوا من بعد المؤسس أحمد بن سعيد، ومن موقعه بالقصر وعلاقته بالحكام وحظوته لدى الأئمة، بل ومشاركته في الحروب صنع سيرته.

ويشير ابن رزيق في كتبه إلى العلاقة الوطيدة التي كانت بين الإمام أحمد بن سعيد وجده رزيق تنعمت من خلالها أسرته، وقد أشار إلى ذلك ابن رزيق، فقال:

لقد نلت حظا منهم ناله أبي وقبل أبي ناله جدي

(السلك الفريد، 1996: 134).

كنيته:

بالنسبة لكنيته فإن المصادر لم تذكر اسمًا معينًا كني به ابن رزيق، كما لم يشر هو بنفسه إلى شيء من ذلك، أما لقبه فإنه يلقب نفسه سليل ابن رزيق؛ حيث يرد هذا اللقب كثيرًا في مؤلفاته التاريخية عند عرض الأحداث وتقصي الأخبار؛ ولهذا عرف في الأوساط العلمية العربية بابن رزيق، واشتهر به دون غيره، أما عند الباحثين الأجانب فيشيع لديهم سليل ابن رزيق.

وقد قيل في صفاته العلمية: إنه مؤرخ، وأديب، وشاعر، وبلاغي، ونحوي، وهذا يدل على أنه نهل من معين عصره العلمي، ونال معرفة واسعة، أهلته إلى الانضمام إلى ركب أعلام التاريخ والأدب والشعر في عمان، وقد مكنته لغته وأسلوبه المتميز وعلمه الواسع في الفقه والنحو والصرف والعروض أن يحظى بشهرة عالية بين العلماء والأدباء في عصره. (الخصيبي، 1984: 128).

تعامل ابن رزيق مع مصادره تعاملًا ينادي به المنهج الحديث في التأليف، واعتماد المرجعية مهما تنوعت أصولها، وفروعها.

تتنوع مؤلفات ابن رزيق بين المقامات والدواوين، وفي التاريخ والأنساب؛ ففي كتاب "الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين" لاحظنا أن ابن رزيق يقر في أحد المواضع أن له ستين مقامة مجموعة في كتاب له (علم الكرامات المنسوب إلى نسق المقامات)، وقد أشار إليه ابن رزيق في قوله: "لقد بدت لي الفتنة لما أثبت ما في المقامة من الخطاب في هذا الكتاب أن أثبت مقامه من الستين المقامات الشائعات مع الخاصة والعامة، وقد سميت ذلك الكتاب الذي أودعتهن فيه، (علم الكرامات المنسوب إلى نسق المقامات).

وقد لاحظنا أن معظم مؤلفات ابن رزيق غالبيتها على ذكر ومدائح آل سعيد، سواء أكانت شعرًا أو نثرًا، ومن دواوين الشاعر ديوان (ابن رزيق)، قام بتحقيقه محمد عبد المنعم خفاجة، يتضمن مجموعة من القصائد في مدح السيد سالم بن سلطان بن أحمد، وولده السيد محمد بن سالم بن سلطان، والديوان عبارة عن مجموعة من قصائد مختارة من ديوانه (سبائك اللجين) و(فصوص المرجان) في مدح السيد محمد بن سالم بن سلطان بن الإمام أحمد البوسعيدي، ديوان (جلدة الأنام في مدح الإمام الحميد أحمد بن سعيد)، وديوان (قلائد الجمان في مدح الشيخ ناصر بن أبي نبهان)، وديوان (سلك الفريد) في مدح السيد الحميد ثويني بن سعيد (ت 2821هـ)، قام بتحقيقه محمد بن علي الصليبي، ونشره في ثلاثة أجزاء (1997م)، وألحق به (الجوهرة الجمانية في مناقب اليمنية)، وهي عبارة عن قصيدة في المدح، وتقع في تسعة وعشرين بيتًا من البحر المتوسط، وضمنها أيضًا تعريفًا موجزًا لبعض أسماء الصحابيات اليمنيات، وبه ملحق بعنوان: (جوهرة التيجان) في مدح السيد ثويني بن سعيد بن سلطان، وهي منظومة تقع في سبع وخمسين صفحة (السيرة الجلية، 2007م، معجم شعراء الإباضية، السعدي)، وديوان (سلوة الأنام) في مدح الإمام أحمد بن سعيد، وهو عبارة عن قصائد لكبار الشعراء في مدح الإمام وأبنائه وأحفاده، بالإضافة إلى ديوان "فرند الجمان"، وديوان "نور الأعيان وضوء الأذهان في مدح الشيخ محسن بن زهران"، وديوان آخر في مدح أبناء الشيخ محسن بن زهران (ابن رزيق، 1983: 9-79).

وقصيدة "الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان"، حققه عبد المنعم عامر، وهي قصيدة خصها في ذكر أئمة عمان، وهي عبارة عن قصيدة شعرية من مائة وثمانية وأربعين بيتًا، خصصها في ذكر أئمة عمان، من قبل الإمام أحمد بن سعيد، وعددهم خمسة وعشرون إمامًا، أولهم الجلندي بن مسعود، وآخرهم سلطان بن مرشد (ابن رزيق، 1983: المقدمة1).

القصيدة القدسية النورانية في مدح العدنانية، قصيدة طويلة شرحها ابن رزيق في مجلدين، وكتاب "الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين"، حققه عبد المنعم عامر ومحمد بن موسى، ويعد

هذا الكتاب من المصادر المهمة لتاريخ السادة البوسعيديين في الفترة ما بين 1154هـ إلى عام 1273هـ/ 1856م، وألحق به "بدر التمام في سيرة السيد الهمام سعيد بن سلطان"، طبعت كملحق في كتاب الفتح المبين، وقام القس بادجر بترجمته إلى الإنجليزية، ونشره في لندن تحت عنوان "تأريخ أئمة وسادة عمان".(ابن رزيق، 2001م). و(سراج المسترشد الهادي إلى مناقب سيرة الإمام ناصر بن مرشد)، يتحدث عن مناقب الإمام ناصر بن مرشد، ويذكر فيها قصصًا واقعيةً عنه (ابن رزيق، 2001: ص: و، ز).

(الصحيفة العدنانية)، وتقع في 477 صفحة مزدوجة (صورة من أصل بلندن)، أشار المؤلف في خاتمتها إلى أنه ألفها قبل القحطانية، والصحيفة القحطانية، وبدر التمام في سيرة الهمام سعيد بن سلطان، والسيرة الجليلة المسماة: سعد سعود السعيدية وهي سيرة مختصرة في تاريخ آل بوسعيد (ابن رزيق، 2007: 4).

وكتاب (المؤتمن في ذكر مناقب نزار واليمن)، و(سراج المسترشد الهادي لمناقب سيرة الغمام الممجد ناصر بن مرشد)، كتب أيضًا عن أنساب قبائل الأزد والقبائل العدنانية في الجاهلية وقبل الإسلام، وتوجد هذه القبائل في عمان، ثم كتب طرفًا من السيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين، وأحداث التاريخ الإسلامي المبكر أيام الخلفاء الراشدين، وتناول أخبار الدولة العباسية، والكثير من الشعر والأدب العربي في الجاهلية والإسلام (ابن رزيق، 2007: 6).

هذه بعض من مؤلفات ابن رزيق وهناك الكثير منها.

المبحث الثاني: فن المقامات (التعريف والنشأة)

تعريف المقامات:

فن المقامات فن معروف، هو أسلوب أدبي ظهر في الأدب العربي في القرن الرابع الهجري، ويعدّ أحد الفنون النثرية التي تقوم على السرد القصصي، بهدف تقديم موعظة، أو تعليم فكرة بأسلوب أدبي جذاب وممتع.

وتستند المقامات إلى قصص وحكايات تتناول الأخلاق والقيم الدينية، كالتوبة، والكرم، والتقوى، ويظهر فيها السارد أو الراوي في قالب حكيم أو مصلح ينقل للناس دروساً من خلال تجاربه.

"حظيت المقامات باهتمام واضح في تاريخ الأدب العربي عامة، وفي العصر الحديث خاصة، على تباين وجهات النظر في التقدير والتحليل" (السعافين، 1987: 7).

وقد تركز الاهتمام على طبيعة المقامات وعلى نشأتها وتطورها منذ ظهورها في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وراجت في عصور الانحطاط، وظلت المثل الأعلى لأسلوب الكتابة النثرية حتى النهضة العربية في القرن التاسع عشر (يعقوب، وعاصي، 1987: 260).

فالمقامة هي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خاطرة وجدانية، أو لمحة من لمحات الدعابة والجنون (زكي مبارك، 1934: 242).

أشهر من برع في فن المقامات هو بديع الزمان "الهمذاني"، الذي يعتبر المؤسس لهذا الفن، ويليه "أبو القاسم الحريري".

وتدور المقامات غالباً حول شخصيتين رئيستين: الراوي والبطل أو البطل المحتال؛ حيث يقوم الراوي بسرد حكايات البطل الذي يجول في الأمصار، ويستخدم الحيلة والبلاغة لكسب المال أو التسلية.

ورغم أن بعض المقامات قد تبدو أنها تسعى للتسلية أو الفكاهة، إلا أن أغلبها يحمل معانٍ عميقة ودروساً دينية وأخلاقية، وفيها حثٌّ للناس على اتباع القيم الإسلامية والأخلاقية الحميدة، مثل الصدق، والأمانة، والابتعاد عن الكذب والخداع.

"فالمقامات العمانية التي وصلت إلينا مطبوعة ومخطوطة بدءاً من الشيخ محمد بن سعيد القلهاتي الذي عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري حتى الشيخ عبد الله الخليلي المتوفى في نهاية القرن الماضي، فإن الحصيلة المتحققة لا تزيد عن ست عشرة مقامة متفاوتة الطول والقيمة" (خضير والعتوم، 2010: 156).

"وعلى الرغم أن القلهاتي أسبق زمناً في كتابة مقامته (الكلوية)، إلا أنه لا يعد المؤسس الحقيقي لفن المقامات العمانية؛ لأنها لا تحوي من سمات المقامة غير قالبها الأساسي المتمثل بوجود راوية وبطل" (خضير والعتوم، 2010، 156).

وإنما عد المؤسس الحقيقي هو "محمد بن علي بن خميس البرواني"، "أحد أدباء عمان في "زنجبار" في نصف القرن الأخير، ولمقامته راوية هو "هلال بن إياس" (درويش، 2005: 11)، وله خمس مقامات أسماها (من مقامات أبي الحارث)، "تنطوي على مزج ناجح بين تأثر صاحبها بمؤلفي المقامات السابقين له، واستيعابه لفن المقامة القديمة وأصول كتابتها، وجعله المقامة معرضاً لثقافة مؤلفها، واهتماماته الدينية والأخلاقية الغالبة، وكذلك وصف بعض أسفاره ومشاهداته التي شملت مناطق متعددة في الشام ومصر والحجاز" (خضير والعتوم، 2010: 195).

المقامات في كتاب الفتح المبين:

ذكر ابن رزيق في كتاب الفتح المبين مقامتين من المقامات الستين وهي:

المقامة الأولى: المقامة السونية (العوابي) من تأليف الشاعر الأديب سعيد بن راشد الغشري الخروصي، وتتناول موضوعات دينية وأخلاقية واجتماعية بطريقة قصصية مشوقة، وتظهر براعة الغشري في استخدام اللغة والتلاعب بالألفاظ، ضمن قالب أدبي ممتع يجمع بين الفصاحة والحكمة.

في المقامة السونية يسرد الغشري حكاية رمزية تهدف إلى تقديم درس أو موعظة أخلاقية، وتسلط الضوء على بعض العادات والتقاليد العمانية.

يقول ابن رزيق عنها: "وله مقامة نثرية على نسج المقامات الحريرية، سماها المقامة السونية، وسوني هي بلدة العوابي" (ابن رزيق، 2001: 160).

المقامة الثانية: المقامة الشاذونية، وهي من تأليف ابن رزيق نفسه، وسماها المقامة الشاذونية (نخل) (ابن رزيق، الفتح المبين)، أما الكتاب نفسه فلا يزال مفقودا حيث لم يهتد أحد إلى مكانه، وربما فقد من أساسه، ويعود هذا من رأي إلى أن ابن رزيق مات ولا ندري أين ذهبت مكتبته الخاصة التي تضم مجموعة من الكتب، والتي كانت مصادره الأساسية في مؤلفاته الكثيرة.

في هذه المقامة يتناول ابن رزيق بأسلوب قصصي وحواري قصةً اجتماعية تحاكي الواقع، وتطرح قضايا أخلاقية ودينية، وتعد جزءاً من مجهوده الأدبي لنقل التراث العماني بطريقة أدبية ممتعة.

تركز المقامة الشاذونية على موضوعات، مثل الأخلاق الحميدة، والحكمة، والكرم؛ حيث يتم سرد القصة بأسلوب يجمع بين الطرافة والحكمة، فيظهر بطل القصة كشخصية تجوب المجتمعات، وتنقل الحكم والنصائح بذكاء ومهارة، وتمتاز المقامة الشاذونية باللغة الفصيحة والأسلوب البليغ، مع إضافة لمسات من التراث المحلي العماني؛ مما يجعلها فريدة في قالب المقامات العربية التقليدية.

وهذه المقامة وسيلة لنقل القيم الأخلاقية والدينية بأسلوب قصصي بليغ (البوعلي، 2004: 93).

المبحث الثالث: تحليل المقامة الشاذونية

البنية الفنية:

أولا: اللغة والأسلوب:

لابد لكل عمل فني من ملامح بناء خاصة به (إحسان عباس، فن السير)، وللمقامة "ملامح متعددة تشترك في رسم قسمات المقامة الاصطلاحية، وتبدو أبرز ملامحها في استلهام تشكيل هيكل المقامة بملامحه العامة" (السعافين، 1987: 115).

وذلك من خلال تشكيل مجموعة من المفردات تتمثل في الإطلالة التمهيدية، وتتضمن إسناد فعل القول أو حكي المقامات إلى راوٍ بعينه، وعادةً ما تبدأ الإطلالة بفعل من الأفعال التي تحوي معنى الرواية، مثل: حكى – قال – حدث – روى.

ومطلع (الشاذونية) مقامة ابن رزيق: "حكى الوارث بن بسام شيخ العتيك عن أبي جواب الضريك، قال: ألفت ذات سنة..." (ابن رزيق، 2001: 163).

وفي هذا التركيب الإطلالي كان للإسناد دورٌ مميزٌ؛ إذ إن إسناد الفعل (حكى) إلى (الوارث بن بسام)، وهو الراوي ينم عن حرص "ابن رزيق في إثبات الصدق" لمقامته، في الوقت نفسه فيه تبرئةٌ للذات صدقاً.

والفعل (قال) مسند نحوياً إلى الوارث بن بسام، إلا أنك تشعر أن هناك راوياً خفياً ينقل ما حكاه الراوي الوارث بن بسام ألا وهو ابن رزيق، في الجانب نفسه تعطي تصوراً بوجود مخاطب يستمع لفعل (الحكي) و(القول).

ويتشابه الفعلان (حكى) و(قال) زمناً، إلا أن المغايرة بينهما أعطت دلالة جميلة في مستهل المقامة؛ إذ إن ابن رزيق كان مستمعاً ضمنياً للراوي الحقيقي الوارث بن بسام فناسبه الحكي، وهو بدوره ينقل ما سمع؛ فناسبه القول (البوعلي، 2004: 94، 95).

ثانياً: الشخصيات:

في نصوص المقامات عادة ما تقوم على شخصيتين أساسيتين هما الراوي، والبطل.

فالراوي هو "الذي يقوم برواية أحداث المقامة ومغامرات بطلها"، و"يجوز عليه الخداع في معظم الأحيان، ثم اكتشافه حقيقة البطل في النهاية" (جبور عبد النور، 1984: 260).

والبطل هو "المشهور بالحيلة والذكاء والدهاء في الحصول على المغانم والتأثير في نفوس السامعين، ويمثل خير تمثيل طبقة المكدين في الحضارة العربية، الأمر الذي يجعل من هذه الشخصية، شخصية كادية، تتقمص وتتنكر في شخصيات متنوعة و"هو في الأغلب الأعم شخصٌ مسنٌ أو شيخ مجرب دروب الحياة، وعلى دراية بمعاكسات الزمان والحظ، ومن ثم يتبلور دوره في إفادة الآخرين من جمهور سامعيه؛ إذ يلقي عليهم تجارب حياته ومعرفته الواسعة، ويجعلهم يستفيدون من سعة ثقافته اللغوية والأدبية والبلاغية" (البوعلي، 2004: 95).

وبجانب الراوي والبطل تأتي في المقامة بعض الشخصيات الثانوية التي يكون لها دور مساعد في تشكيل الحدث.

وفي المقامة الشاذونية تتمثل الشخصيات الرئيسة في:

الراوي: وجاء وصفه بأنه شيخ العتيك، أجبره تقلّب الزمان خروجه من بلدته والترحال إلى بلدان عدة حتى حل في عتيك شاذون.

وتظهر في المقامة طيبة الراوي، وضعف شخصيته، فقد صدق أبا جواب الضريك دون البحث عن الأسباب، وقد رثى حاله فقال: "وكلما نزلت دارا صيرتني أسيرا، وما تلبثت بها إلا يسيرا، ولم أزل في وحشة بقربة الناس، وببعدهم في إيناس..."

فهذا الضعف في الشخصية ناسبها الإسناد إلى الضمير المتكلم المفرد: "فرحلت، توجهت، حططت، ألقيت، جاءني، ألقيت، جاءني، رددت، سمعت، فوقعت، ضربت، أنخت..." (ابن رزيق، 2001: 163-164).

ويستمد الراوي القوة بالتحامه بالجامعة في عتيك شاذون، فتظهر حركة الجماعة في "نحن، أقبل علينا، فنهضت مع من نهض..."، وهذه هي الحركة الثانية للراوي.

وفي آخر المطاف تثور عليه الجماعة طالبين منه اللحاق بالبطل، فلا يحصل على بغيتهم، ويتحصل على عمامته المسروقة، ويكشف زندقة البطل والغلام، وهو بهذا الحال كأنه عودٌ على بدء.

إن الحركة الفردية للراوي "تعلن عن بداية الحدث والاستهلال لوقوعه، كما تتضمن انتهاء الحدث؛ وذلك بتعرف الراوي على البطل ومواجهته بفعلته النكراء" (البوعلي، 2004: 95).

البطل: وهو شيخ يكنى بأبي جواب الضريك، وقد جاء وصفه في بداية الشاذونية "شيخ أعرج الظهر، أبرص الثغر، حلته محرقة، ولحيته ممزقة، وقد خطت السياط في ظهره أفاءها، ومشقت المسامير المحماة بكفه كافاتها..."، وهذه الحال تدعو للشفقة، ومدعاة قوية لانطلاء الحيلة على البطل، وفيها قدرة إبداعية في تصوير الحالية، وتتقلب الهيئة؛ فإذا "الشيخ يمسح على لحيته الجميلة، ويعد بمسبحته ما أودعه في سبحته الطويلة..."، وتصدق هذه الحال الجميلة على من أوتي مفاتيح الخير، وعلم سرائر الكون، فالبطل يقول: "فإن الله أغنانا عن أموال الناس...، وأعطانا من كنوز الأسرار ما يزهي بها حر الدرهم والدينار، فما قدر الفضة والذهب عندنا إلا كالتراب..." (الفتح المبين، 2001: 168).

إن من السهل خداعَ الناس وقد تقمص البطل منظراً ترتاح له النفس، وتحلى بلسان تنساق الكلمات منه روعة وبلاغة، لا سيما أن حب المال مجبول فطرياً في الإنسان، فطمعوا في ملء عمائمهم ذهباً، فما استتم كلامه إلا وعمائم القوم بين يديه أكداس".

ويتلون البطل في آخر الشاذونية، فإذا الرزانة طيش، والنور ظلام، والحق باطل، فما أعجب منظره "وقد تعمم الشيخ بعمامة حمراء، وبين يديه كوب من مدام، وخمسين مزهرا من مزاهر أولاد برهام، يضرب الطبل ويرقص، ويدعوا إلى المجون ويتغزل في جمال المدام نظما...".

الغلام: وهو قرين البطل تلوناً وفصاحة ولهواً ومجوناً، فهو "فصيح اللسان، فسيح الصدر والجنان"، وتقمص الغلام ببردة صفراء، وبين أيديهما مائة كوب من المدام... والغلام ينفخ في الزمر ويرقص..." (الفتح المبين، 2001: 169).

إن تركيب الشاذونية مبني على هذا التغاير في الأوصاف، الأمر الذي يحدث المتعة والإثارة في المتلقي والسامع، فمن خلاله يقضي على الرتابة، ويخلق في الآن نفسه مشهدا قريباً من الحياة؛ إذ ثبات الحال من المحال.

إن هذا التغاير مبني في الحقيقة على أساس فني رفيع يكشف قدرة كاتبها في هذا الفن، لا سيما أن المشاهد تتفق مع المأرب المراد في حينه؛ فالمشهد الأول المزري للبطل كان دافعاً لإعطائه نفحة صدقية، وللراوي دفعة للسفر والترحال، والمشهد الثاني القدسي الطاهر للبطل والغلام كان دافعا لسرقة العمائم، بل ودفعها لهم طيبة بها نفوسهم، والمشهد الأخير هو متفق تماماً لكشف نفاق البطل والغلام.

ومن الغريب أن الراوي والبطل والغلام تتحد صفاتهم في المواضع كلها، فالغربة ومشقة السفر لدى الراوي قابلها المشهد المروع للبطل في بداية التقائهما، والمشهد الممتع المريح ناسقه جمال وحلاوة البطل والغلام صورة ولساناً، وفي الأخير مع اندهاش الراوي وشعوره بالهزيمة وانطلاء الحيلة عليه اتفق مع البطل والغلام الهاربين بالعمائم خوف لحاق العدالة بهم.

إن القدرة العقلية للبطل مكنته من التغلب في أماكن شتى، وقدرته العلمية واضحة العيان؛ فاستشهاده نظماً ونثراً لعبا دوراً مميزاً (الفتح المبين، 2001: 170).

الشخصيات الثانوية:

أهالي عتيك شاذون: "فطفق أهلها بمحضة الترحيب تصافحني...".

الفتى: "إذ أقبل علينا فتى شيخ تيمي...".

إمام المسجد: "قال إمام المسجد: أيها الناس، اجثوا على الركب...".

المؤذن: "قال المؤذن: ضياؤكم ظلام، لقد هرب الشيخ بالعمائم...".

القينة (الجارية): "وقينة تصفق باليدين، وتحالف بالرجلين..." (الفتح المبين، 2001: 170، 164-165).

كانت هذه الشخصيات "بمثابة عامل أو محرك للشخصيات الرئيسة، وعاملاً مساعداً في ربط الأحداث وزيادة فعاليتها (البوعلي، 2001: 101).

ثالثاً: الحدث والحبكة ولغة السرد:

الحدث أو الحبكة في الشاذونية متلازمان؛ فهناك مجموعة من الأحداث تعقبها حبكة مباشرة لا تتسلسل في إطار الانفراج، ويمكن تصور ثلاثة أحداث: حدث الملاقاة بين البطل والراوي، محبك بالمنظر الأليم للبطل، منفرج بحل الترحال من سدوم (ابن رزيق، 2001: 156).

في المقامة الشاذونية وبعيداً عن التفاصيل الدقيقة للحدث، نجد أنه لا اختلاف في الخطوط العريضة لحدث المقامة؛ إذ تبدأ المقامة بحدث خروج الراوي وانفصاله عن جماعة بلدة (شاذون) إلى (قصرى وبصرى)، ومن ثم مقابلته للبطل، الذي يحتال عليه بالتظاهر بالضعف والحاجة؛ إذ أتى عليه الزمان وأهل بلدة (سدوم)، مما يترتب على تحذير البطل للراوي، رجوعه إلى بلدة (عتيك بشاذون) وتحركه مع الجماعة لسماع الشيخ البليغ الذي سيخطب بالجامع، وتذكر البطل لملامح الشيخ؛ حيث إنه هو الذي قابله (ببصرى)، ثم يعقب ذلك خطبة الغلام واحتيالهما (أي الأخير والبطل) على عمائم أهل الجامع وهروبهما، الأمر الذي يترتب عليه خروج الراوي للبحث عنهما، ومن ثم اكتشافه لحقيقتهما في الزندقة والمجون، وعجزه عن الظفر بالعمائم المسروقة، وختاماً رجوعه إلى أهل بلدته ومن ثم لعنتهم للشيخ والغلام.

إن إمعان النظر في الحدث والحبكة يلحظ فيهما التساير الخطي في تشكيلهما؛ إذ كل جزء يؤدي إلى ما بعده بطريقة مستقيمة (بداية، ووسط، ونهاية)، على أن الحدث والحبكة في كل تكرار لهما يمثلان جزءاً تتكامل فيما بينهما مشكلّة نسيجاً للمقامة.

لغة السرد في المقامة الشاذونية تشكل النسيج اللغوي للشاذونية "بالزخرفة، والتلاعب اللفظي، والأساليب البلاغية، والألفاظ الغريبة نثراً ونظماً". كانت حائلا دون تنامي الحدث والحبكة نموا حقيقيا أو فنيا، ليس هذا فحسب بل إن طبيعة هذه اللغة قد أثرت أيضا في رسم الشخصيات في المقامة الشاذونية. إذ بدت الشخصيات ضعيفة الملامح ضئيلة الدور، الأمر الذي أثر أيضا على عنصر الحوار في المقامة، فظهر بسيطا بين الراوي والبطل خاليا من أية أبعاد مركبة أو نفسية (البوعلي، 2004: 102).

ويمكن القول: إن إتيان "الصعب والغريب المعجز في صناعة النثر والشعر مما يحرص عليه كتاب المقامات، حتى غدا أمراً مسلماً به في كل مقامة" (يعقوب، وعاصي،1987: 1184).

رابعاً: المكان والزمان:

لا شك أن للمكان والزمان دورهما المميز في أي عمل فني، وقد شكلا خلفية جميلة للشاذونية في توضيح الدلالات الرامزة إليها، مثل: (سدوم)، (المسجد)، وهما أماكن لهما مخزونهما في الذاكرة، فالأول: يرمز إلى خطيئة أهل قرية في فلسطين وما لا قوة فيه من التعذيب، والثانية: رمز للعبودية والدخول في دين خير الأنام، وفي بعض الأماكن لم يكن لها ما يميزها عن غيرها (شاذون، قصرى، بصرى).

وسواء أكان المكان رامزاً أو غير رامز فالسكون حالّ به، لا يتنامى مع تنامي الحدث، ولعل السبب هو أن مجريات الأحداث لا تقع في مكان واحد (جبور عبد المنعم، 1984: 260).

أما الزمان "كان سكونياً لا يساعد على نشوء الشيء أو تناميه، وكأن المكان خلفية صامتة تقع عليها أحداث المقامة، ونعني بذلك الترابط التلازمي بين المكان والحدث، إذا انتهى الأخير ينتهي دور الأول (البوعلي، 2004: 102).

تسمية المقامة بأسماء البلدان كإشارة للمواضع الجغرافية التي وقعت عليها أحداث المقامة، فالمقامة الشاذونية نسبة إلى (شاذون) بلدة بنخل والعوابي في سلطنة عمان (البوعلي، 2004: 103).

الخاتمة:

فن المقامات عند ابن رزيق، كما هو الحال مع مقامات الأدباء الآخرين، ترك تأثيراً ملحوظاً على الأدب العربي؛ لأنها تهدف إلى رسالة التقويم الخلقي وهو ما يسمى بالمقامة الاجتماعية، المتضمنة مجموعة من الأساليب البلاغية والتكلف اللفظي على المستويين: النثري والنظمي.

وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

1- شكلت المقامات وسيلة لإظهار براعة اللغة ومرونتها.

2- ابن رزيق كغيره من كتاب المقامات استعرض قدرته على التلاعب بالألفاظ، والتفنن في السرد.

3- مقامات "ابن رزيق" سلطت الضوء على العديد من القضايا الاجتماعية، مثل الفقر، والجشع، والخداع، والصدق.

4- قدمت المقامات نقداً خفياً لهذه الظواهر الاجتماعية بأسلوب فكاهي وممتع؛ مما ساهم في تعزيز الوعي بين القراء.

5- المقامات لها دور كبير في تطوير تقنيات السرد في الأدب العربي.

6- استخدام ابن رزيق للحبكة المحكمة والشخصيات المتكررة؛ مما ساعد في بناء أنماط سردية جديدة جعلت من السرد الأدبي أكثر تعقيداً وإثارة.

7- على الرغم من أن المقامة الشاذونية كانت تتميز بالحيل والخدع، إلا أنها كانت تحمل رسائل أخلاقية واضحة.

8- سعي ابن رزيق من خلال قصصه إلى تعليم القارئ بعض القيم الأخلاقية مثل الذكاء، والصبر، والمكر الحميد الذي يتغلب على الظروف الصعبة.

9- انتشار المقامات وتطويرها بفضل أعمال ابن رزيق وغيره من الكتاب، استمر فن المقامات في التأثير على الأدب العربي لفترة طويلة، سواء في الأدب الكلاسيكي، أو الحديث.

10- المقامات ألهمت الكثير من الكتاب في الفترات اللاحقة، وأسهمت في تطور الكتابة النثرية بأسلوب يمزج بين المتعة والفائدة.

11- المقامة (الشاذونية)، تظهر إبداع ابن رزيق كأديب عماني جمع بين الإرث الأدبي والبيئة المحلية، وهذه الدراسة أثبتت أهمية هذا العمل كجزء من الأدب العربي.

12- إجمالاً؛ مقامات ابن رزيق ساهمت في توسيع آفاق الأدب العربي، سواء من حيث الشكل أو المضمون، وكانت مثالاً على دمج الطرافة والحكمة في إطار أدبي فني يجذب القارئ، ويحمله على التفكير.

توصي الدراسة بالتوصيات التالية:

1- إجراء المزيد من الدراسات حول فن المقامات بشكل عام، والمقامة الشاذونية بشكل خاص، مع التأكيد على أهمية هذا الفن في إثراء الأدب العربي، والثقافة العمانية الأصيلة.

2- عمل مقارنات بين مقامات ابن رزيق بمقامات آخرين، مثل الحريري والهمذاني، لاستخلاص أوجه التشابه والاختلاف في الأسلوب والمضمون بين المقامتين.

3- على المخرجين والمسرحيين بتحويل مقامات (ابن رزيق) إلى أعمال مسرحية أو درامية لإحياء هذا الفن.

4- تنظيم مؤتمرات وندوات حول فن المقامات في عمان وخارجها، وإبراز أثر المقامات على الأدب العربي بشكل عام.

5- عمل دراسات مستقبلية عن تأثير فن المقامات على الأنواع الأدبية الحديثة، الرواية والقصة القصيرة.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم، عبد الله (1992): السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، ط1، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- ابن رزيق (2001): الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين، تحقيق: عبد المنعم عامر، ومحمد مرسي عبد الله، ط5، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.
- ابن رزيق (2007): السيرة الجلية، تحقيق: السالمي، عبد الرحمن بن سليمان، ط1، مسقط: وزارة التراث والثقافة.
- أمبوسعيدي، عبد الله بن مسعود (2003): ابن رزيق ودوره في كتابة التاريخ، عمان، جامعة الأردن: رسالة دكتوراه غير منشور.
- البوعلي، آسية بنت ناصر (2004): البنية الفنية لمقامات ابن رزيق، بحث مقدم لوزارة التراث والثقافة (المنتدى التربوي).
- جبور، عبد النور (1984)، المعجم الأدبي، ط2، لبنان: دار العلم للملايين.
- خضير، ضياء؛ والعتوم، كامل (2010): المقامات العمانية من ابن دريد حتى عصرنا الراهن، رسالة التربة، جامعة صحار.
- درويش، أحمد وآخرون (2005): تطور الأدب العماني، ط1، مسقط: مكتبة مسقط.
- السعافين، إبراهيم (1987)، أصول المقامات، بيروت: دار المناهل للطباعة والنشر.
- عاصي، ميشال؛ ويعقوب، إميل (1987): المعجم المفصل في اللغة والأدب، ط1، لبنان: دار العلم للملايين.
- كيليطو، عبد الفتاح (1993): المقامات: السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، ط1، المغرب: دار توبقال للنشر.
- مبارك، زكي (1934): النثر الفني في القرن الرابع، ط1، مصر: دار الكتب العربية.